القيامة وما ضدّها

ان من الظهورات التي قام بها يسوع من بعد قيامته آخذ اثنين من انجيل يوحنا. الظهور الاول كان عند مساء الفصح لما تراءى للتلاميذ الذين كانوا مجتمعين خوفاً من اليهود. فقد دخل عليهم والابواب مغلقة مما يشير الى اعتقاد الكاتب والجماعة الاولى ان جسد يسوع امسى غير كثيف، مخترقاً الحواجز مع انه لم يصبح روحاً محضاً. هذا ما يسميه بولس "جسماً روحياً" او جسماً مجيداً. ما هو من الايمان ان جسد المخلص هو اياه الجسد المقام على تغيير في الصفات. وما يثبت الاستمرار ان الفادي ارى تلاميذه "يديه وجنبه".

لم يكن توما في الاحد هذا معهم. هذا الرسول شك في ان الرب تراءى للتلاميذ. فظهر لهم في الاحد اللاحق وتوما معهم وقال لهذا: "هات اصبعك الى هنا فانظر يدي (اي اللتين عليهما اثر المسامير) وهات يدك وضعها في جنبي (اي الذي طُعن بحربة)". المجد اذاً يحيط بآثار الآلام. بهذا الوسم الذي بقي من الاوجاع بعدما زالت يبقى يسوع الى الابد بعدما عاد الى مطلق الآب والى سيادة الازمنة. ويعبر عن هذا بولس بقوله: "نعلم ان المسيح، بعدما اقيم من بين الاموات، لن يموت بعد ذلك ولن يكون للموت عليه من سلطان" (رومية ٦:٩).

يبقى السؤال ما هذه القيامة فينا، ماذا لنا منها؟ يقول بولس ستكون قيامة للاموات بسبب من انبعاث السيد. "فإذا كان الاموات لا يقومون، فالمسيح لم يقم ايضاً" (١ كورنثوس ١٥:١٦). متى يحصل هذا؟ يجيب الرسول عند المجيء او الحضور الثاني. ما يتبسط به بولس نفسه اذا تكلم في الرسالة الى اهل رومية على المعمودية هو اننا "دفنا معه في موته بالمعمودية لنحيا نحن ايضاً حياة جديدة". ما هو اوضح واقول قوله في الرسالة الى اهل كولوسي: "مدفونين معه في المعمودية التي فيها أُقمتم ايضاً" (٢:١٢). معنى ذلك ان قيامة السيد تتساقط علينا براً وقداسة هنا. لكنه يوضح ان هذه الحياة الجديدة لا تأخذ كل مداها الا في القيامة الاخيرة ويتحدث عنها بلغة المستقبل. غير ان بولس يقدم في هذا النص الى اهل رومية جدلية الحاضر والآتي اذ يعود ليقول انكم الآن "احياء لله في يسوع المسيح" (٦:١١). وهنا يعلّم الانجيل الرابع: "الحياة الابدية هي ان يعرفوك انت الاله الحق وحدك ويعرفوا الذي ارسلته يسوع المسيح" (يوحنا ١٧:٣).

ويوحنا مع قبوله الواضح بالقيامة الاخيرة يأتينا بحوار مذهل للسيد مع مرتا اخت لعازر بعدما مات هذا. تقول له: "يا رب، لو كنت ههنا لما مات اخي... فقال لها يسوع: سيقوم اخوك". ظنت انه يتكلم على القيامة في اليوم الاخير. اذ ذاك، صدعها يسوع بقوله: "انا القيامة والحياة". وكأنه يقول: ليست القيامة الاخيرية ما انا متكلم عليه بل انا، في شخصي، في ذاتي، قيامتك الآن وقيامة احبائي. انا الحياة الكاملة. اما القيامة الاخيرية فمن باب انها كشف لهذه الحياة الكاملة التي ينالها المؤمن. انه "لن يموت للابد".

* * *

مع ذلك عرف المؤمنون بيسوع انهم يخطئون فبولس يتحدث عن خطايا ارتكبت في كنيسة كورنثوس اي في السنة الرابعة والخمسين بعد الميلاد. وتقول الرسالة الى اهل غلاطية ان بطرس اخطأ في انطاكية اذ تقرب من المسيحيين المتحدرين من اصل يهودي وآكلهم ولم يؤاكل المتحدرين من اصل وثني ووبخه بولس على ذلك. ثم رأينا ان بعض المولودين في عائلات مسيحية كانوا يرجئون معموديتهم الى سن متقدمة نسبياً خوفاً من ان يخطئوا بعد المعمودية. واخذت الكنيسة تقصي عن الشركة من زنى ومن قتل ومن وقع في الوثنية بعد اعتماده حتى رتبت لهم من بعد اقصاء موقت نظاماً للرجوع. ولسنا في حاجة اليوم الى دليل على ان المسيحيين يخطئون كسائر الناس وكأن قيامة يسوع لم تضمهم اليه ضماً نهائياً. فهناك زؤان وحنطة ينميان معاً في حقل واحد وكأن كل مؤمن بعض من زؤان وبعض من حنطة في قلب بشري واحد. وكل التحريض على الفضائل في ما كتبه الرسل لم يكن ليكتبوه لو وصل المسيحيون الى المجد في جسدهم الحاضر. واذا قرأت العظات التي يخاطب بها القديس يوحنا الذهبي الفم اهل انطاكية تجد وصفاً لضعفاتهم وبذخهم وسعيهم الى المجد وان الكثير الكثير في سلوكيات المسيحيين يدل على انهم لم يعتبروا ان المسيح صار لهم قيامة وحياة.

ثم اذا قرأت الأدب النسكي الضخم في الرذائل والفضائل لأدركت ان هذه رذائل المسيحيين وان الآباء يدعونهم الى فضائل لم يكونوا عليها او كانوا عليها قليلا. أليسوا هم مشتركين في انبعاث المخلص وضيائه؟ جوابي عن هذا ان صورة المسيح الظافر الحامل في جسده الممجد آثار المسامير والحربة هي صورة كل مسيحي وان هذا يقوم ويسقط وان قلة عزيزة تابت توبة مستمرة واستنارت وصارت مألوهة اي متخلقة بأخلاق الله وحاصلة منذ الآن على مجده في ذاتها. القداسة التي وجدت دائما بيننا هي تساقط القيامة عند الجديين منا. والشهادة التي أداها الالوف المؤلفة جيلا بعد جيل بلا خوف ولا تردد هي الناطقة بأن نصر المسيح على الموت انما هو فعال عند الذين اعتقدوا انهم اذا ماتوا في استشهادهم حباً انما يتحدون بمخلصهم اتحاداً فورياً وان المجد المرجو لا يزيدهم شيئاً.

طبعاً اذا نظرنا الى التاريخ وسقطات الجماعات المسيحية كلها نرى ان المسيح محجوب عن الحياة الحضارية ولو رسبت فيها آثار له كثيرة في الفكر والفن والاجتماع. يبقى في هذا الخضم الحضاري الكثير الالتباس ان "حياتنا مستترة مع المسيح في الله" وان ما يبدو في التاريخ هو القتل والحرب والكذب وان الثقافات لم تتكون بلا شرور كثيرة.

* * *

"سر الإثم" كامن في ان الله لا يغتصبنا اغتصاباً وانه يدعونا دعوة وانه ينتظر في حنان ان يعود الابن الشاطر. غير ان هذا الضال عاد بعدما تذكر النعم التي كان ينعم بها في دار ابيه. ان الله في المسيح قال للانسان انه محبوب وانه لم يبق تحت شريعة هي فوقه كالسيف المصلت وانه قادر في كل حين على ان يقوم من موته الروحي لأن المحبة تكلمت وبدت.

الوضع البشري صار وضع رجاء لكن الرجاء راسخ في الايمان الذي ظهر. والرجاء ليس صنع خيال كالآمال البشرية التي تتحقق او لا تتحقق. انه قائم على الوعد الالهي بتفعيل الخلاص الذي تم دفعة واحدة. المسيح خبز سماوي او مائدة موضوعة وانت تقبل اليها او لا تقبل. انت تغتذي لأن الطعام الالهي مقدم اليك ولا تستطيع انت ان تأتي بهذا الطعام كما لا تقدر على ان تأكل منه ان ابتعدت عن المائدة.

لقد نزلت عليك القيامية وأحدثت ما ارادته لك حريتك ان تحدث فيك، في ان الله احبك حتى بذل حياة ابنه. المأساة هي في انك لست تريد فعلا ان تدخل في سر الحب وانك لم تؤمن حقا انه ينبغي ان تلقى هذه النعمة بالطاعة.

لا يعرف احد منا لماذا تنقضّ عليه الخطيئة. كيف تأتي، من اين تأتي بعدما ارتضى الله وتعهده. المأساة ليست في ان الله لا يغمرك ولكنها في كونك لا تتمنى انت هذا الضم. لقد نزل الخلاص كاملا من حيث انه هبة وانت فعلا رافض الهبة. لذلك يأتي الموت عطاء الهياً اخيراً. انه يضع حداً للمعصية ويضع حداً للضعف "فيمسح الله من عينيك كل دمعة" ويهبك سلام الرقاد في المسيح وما كان فصحياً فيك يجمعه الى حبه ولا يعود يرى الى الترابية التي آثرتها انت على النور. ولا يفنى كل شيء فيك والانوار التي اصطبغت بها هنا بفضل الفصح الاول يجعلها الله امام عينيه ويسقط عنك الظلام الذي اشتهيت ان ترتديه. وتجيء، اذ ذاك، ليس من هذا الخزف الذي تكسر فيك كثيرا ولكن من عطر المسيح الذي اودعه الخزف وكما حملت صورة الانسان الارضي ستحمل صورة المسيح الجالس فوق. ستقوم غير فاسد وغير وارث للفناء الذي استلذذته كثيراً. سترث المعمودية التي اهملتها، في ملكوت القيامة.

هناك خيط ذهبي امتد من قيامته اليك ولم ترد ان تراه هنا لكن السيد سيرفع عن عينيك الغشاوة في اليوم الاخير. اذ ذاك تنتقل من مجد الى مجد وتسير في المسيح ظافراً وينكشف لك الحق كاملا.

المطران جورج خضر